الفصل الثانى

شروع فى قتل نبى

تمهيد

هذه الجريمة واحدة من جريمتين وقعتا على شخص واحد هو يوسف ـ عليه السلام ـ أما الثانية وهى شروع فى اغتصاب ـ إذا صح استخدام هذه الكلمة ـ فسنعرضها فيما بعد. وسيلاحظ القارىء الكريم وهو يقرأ أحداث هذه الجريمة كيف أن القرآن الكريم بمنهجه فى الأداء الفنى للقصة لم يكتف بعرض الشخصية الرئيسية فى هذه الجريمة، وهى شخصية يوسف ـ عليه السلام ـ بل وعرض أيضا شخصيات أخرى كان لها دور فيها، وحرص على أن يمنح كل شخصية منها المساحة التى تستحقها من رقعة العرض، وأن يضعها على أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية، وفى أوضاع خاصة من الأضواء والظلال، مع التزام دقيق بالحقائق، واهتمام شديد بالجوانب النفسية وتقلباتها إزاء المواقف المختلفة. وذلك فى نماذج متنوعة يأتى فى مقدمتها نموذج يعقوب ـ عليه السلام ـ الأب الطيب المحب الحائر فى أمر أبنائه الذين عجزوا عن إدراك حقيقة مشاعره نحوهم، وفسروها على أن بها انحيازا نحو أخويهما غير الشقيقين. ثم نموذج هؤلاء الأبناء، وعددهم عشرة، الذين تحكمت فيهم هواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة. وقد ميز فيهم أحدهم بشخصية متسقة السمات فى كل مراحل القصة ومواقفها، قيل إنه أكبر أبناء يعقوب المدعو «رأوبين» وهو ما ترددنا فى قبوله للأسباب التى سنوردها فى عرضنا لشخصيات المساهمين فى الجريمة، رجحنا أن يكون أحد أبناء يعقوب الآخرين.

كذلك بين لنا القرآن كيف تطورت مشاعر إخوة يوسف نحوه شيئا فشيئا، فبعد

أن كان حقدهم عليه صغيرا، وغيرتهم منه قليلة، أخذت هذه المشاعر تكبر وتتضخم ويشتد ثقلها على نفوسهم، ووطأتها على قلوبهم، فلم يجدوا ما يخلصهم منها غير التخلص من أخيهم وهم يخدعون ضمائرهم ـ التى نال منها الحسد، وكاد الحقد أن يميتها ـ بمبرر ساذج ظنوا أنه كفيل بإضفاء الشرعية على جريمتهم.

كذلك عرض لنا القرآن المراحل التى تمر بها الجريمة ابتداء من التفكير والتشاور، إذا تعدد مرتكبوها، مرورا بالإعداد الذى يسبق التنفيذ، فالتنفيذ على مسرح الجريمة، ثم انتقل بنا إلى ما بعد التنفيذ حيث التحقيق والبحث فى الأدلة المقدمة، وأخيرا الحكم.

وكنا قد تناولنا فى الفصل الأول جريمة القتل التى ارتكبها أحد ابنى آدم عليه السلام (قابيل) والتى راح ضحية لها أخوه هابيل، فكان بذلك أول قتيل من بنى آدم على هذه الأرض. وفى هذا الفصل نتناول جريمة أخرى كادت أن تكون قتلا لولا أن أحد المتآمرين اقترح العدول عن القتل إلى إلقاء الضحية فى الجب؛ لأن ذلك ـ من وجهة نظره ـ يكفى لتحقيق الغرض الذى جرى التدبير لارتكاب الجريمة من أجل بلوغه.

وكما هو معروف فإن هذه الجريمة ـ كسابقتها ـ وقعت من إخوة على أخ لهم، والجميع أبناء نبى كريم هو يعقوب ـ عليه السلام ـ وفى ذلك إشارة من الله تعالى إلى أن علاقة الأخوة ليست بذاتها مانعة من اعتداء الإخوة على بعضهم، بل هى على خلاف ما يتصوره الناس قد تكون ـ فى أحوال كثيرة ـ سببا فى وقوع الاعتداء، وذلك للأسباب الآتية:

أولا ـ أن الإخوة والأخوات ـ على خلاف غيرهم من الناس ـ يقيمون فى بيت واحد، ويقضون معا وقتا طويلا مما يجعلهم مطلعين على أحوال بعضهم البعض، فإذا حصل واحد منهم على شىء رغب الآخر فى الحصول على مثله، وإذا نال أحدهم ميزة أراد الآخرون أن ينالوا مثلها بغض النظر عن الأسباب التى

حصل من أجلها هذا الأخ على الشيء، أو نال من أجلها الآخر الميزة، فالمنافسة بينهم قائمة مستمرة، وقد تتحول إلى صراع يبدأ خفيا ثم لا يلبث أن يظهر فى شكل أو آخر.

ثانيا ـ أن الحسد بين الأبناء يفوق فى شدته وخطره ما يكون منه بين الأغراب؛ لأن هؤلاء يرون النعمة التى تثير غيرتهم مرة أو مرتين أو أكثر فيتمنون زوالها عن صاحبها فى لحظتها، وقد لا يلتقون به ثانية فينسونه، أما الأبناء فإنهم بحكم حياتهم معا يرون هذه النعمة ليلا ونهارا، صباحا ومساء، فيتجدد حسدهم ويستعر ضيقهم بصاحب النعمة ونقمتهم عليه حتى ليفكرون فى أن يتخذوا إجراء ما لانتزاع هذه النعمة منه، والحصول عليها لأنفسهم. وكنا قد تناولنا موضوع الحسد فى الفصل السابق باستفاضة، وكل ما فيه ينطبق على هذه الحالة كما سنرى.

ثالثا ـ أن الأبناء ـ قبل أن يبلغوا سن الرشد ـ يكونون عاجزين عن إدراك الدوافع الحقيقية وراء تصرف الآباء على نحو يختلف من هذا الابن إلى ذاك مثل صغر السن والمرض والضعف وغير ذلك من الأسباب التى تجعل الآباء يمنحون قدرا أكبر من الاهتمام لأحد أبنائهم دون الآخرين، أو يظهرون مزيدا من الحب نحوه والعطف عليه ومد يد المساعدة إليه، وإنما يريدون أن يساوى الآباء بينهم فى المعاملة بطريقة حسابية هى بطبيعتها مما لا يلائم العواطف والمشاعر. ومن هنا فإنهم يحسدون أخاهم الذى نال أكثر مما نالوا غير ملتفتين إلى أن ذلك كان بسبب مرضه أو صغر سنه أو ضعفه، فكل هذه الأمور ـ من وجهة نظرهم ـ هى من قبيل المبررات التى يفتعلها الآباء لإقناعهم بسلوكهم الذى يفتقر إلى العدل ولا يراعى المساواة.

كذلك فإن من العبر الهامة التى تقدمها لنا هذه الجريمة: أن الآباء لايورثون أبناءهم صفاتهم الطيبة وخصالهم الحميدة وطباعهم الحسنة، فبنوة إخوة يوسف لنبى كريم لا تعنى أنهم ورثوا عنه الخلق العظيم والأدب الجم والأمانة والصدق وكل ما يتصف به الأنبياء؛ لأن هذه الأمور لا تورث، بل تكتسب، وإنما هم

شأنهم شأن غيرهم من الأبناء يتأثرون بكل ما يقع من حولهم من تصرفات وأحداث، سواء فى داخل البيت، حيث يعيشون مع أسرهم، أو خارجه حيث يتصلون بنظرائهم من الصحاب وأبناء الجيران وغيرهم فينقلون عنهم ويحاكونهم.

وتختلف الجريمة التى نتناولها فى هذا الفصل عن كل ما اشتمل عليه القرآن الكريم من الجرائم بوفرة المعلومات ودقة البيانات المتعلقة بالجريمة؛ فقد تناول القرآن ما يسمى بالباعث على ارتكاب الجريمة، وكيف دبر الجناة لارتكابها، وحالتهم العقلية والشعورية أثناء ارتكابهم لها وتخطيطهم المتقن من أجل أن تكون الجريمة كاملة لا يمكن اكتشافها، لا من جانب الأب الذى وثق بهم ووافق على أن يصحبهم أخوهم إلى حيث يلعبون ويرتعون، ولا من جانب الأخ الذى اطمأنوا إلى أنه سيختفى إلى الأبد فلا يواجههم بجرمهم، ولكنهم نسوا أن هناك من لا يغفل ولا ينام ولا تخفى عليه خافية، المطلع على ما فى صدورهم، العليم بنواياهم!!

الأسرة التى وقعت فيها الجريمة:

وقعت الجريمة فى أسرة كبيرة العدد تتكون من اثنى عشر ولدا غير البنات، وأربع زوجات أو أمهات، والزوج، وهو فى الوقت نفسه أبو هؤلاء الأبناء جميعا، نبى ابن نبى: هو إسحاق وحفيد نبى: هو إبراهيم ـ عليهم جميعا السلام ـ أما الزوجات الأربع فإن اثنتين منهما كانتا أختين وابنتى خال الزوج. فلم يكن الزواج بأختين محرما فى ذلك الوقت. وأما الزوجتان الأخريان فكانتا أَمَتَيْنِ مملوكتين لخال الزوج قبل أن يتزوج بهما يعقوب ـ عليه السلام ـ تعمل كل واحدة منهما لدى إحدى الزوجتين الأختين.

ولزواج يعقوب بهؤلاء النساء قصة طريفة، وردت فى التوراة،[1] سنوردها لكى نبين ملابسات زواجه بالأربع واحدة بعد الأخرى، وكيف كانت طبيعة العلاقات بينهن من ناحية وبين أبنائهن من ناحية أخرى.

(١) سفر التكوين، من الإصحاح ٢٥ إلى الإصحاح ٣٧

تزوج يعقوب أولا بمن كانت تدعى (ليئة) وهى ابنة خاله (لابان) وكان زواجه بها نتيجة لخدعة دبرها له خاله. ذلك أن يعقوب لما رحل ليلحق بهذا الخال هربا من أخيه عيسو، رأى راحيل الابنة الصغرى لخاله فأعجب بها، ورغب فى أن يتزوجها، ولكن لأنه لم يكن يملك صداقها فإنه عرض على أبيها أن يعمل لديه سبع سنين كاملة، على أن يكون أجره نظير هذا العمل بمثابة صداق لها. وكانت راحيل على جانب كبير من الحسن بخلاف أختها الكبرى ليئة التى كانت ـ فضلا عن تواضع نصيبها من الجمال ـ مصابة بضعف فى عينيها. ويبدو أن هذا ما جعل الأب يقدمها إلى يعقوب ليلة الزفاف على أنها راحيل، فدخل بها معتقدا أنها هى، فلما اكتشف فى الصباح أنها ليئة عاتب خاله بشدة، فما كان من هذا إلا أن قال له إن من عادتهم ألا يزوجوا البنت الصغرى قبل الكبرى، ثم اقترح عليه أن يعمل لديه سبع سنوات أخرى يزوجه بها راحيل، فوافق يعقوب، وزوجه خاله ابنته الصغرى أيضا بعد أسبوع واحد من دخوله بالأخت الكبرى، وقبل أن يعمل المدة المتفق عليها وهى سبع سنوات، وربما يكون قد فعل ذلك لثقته فيه بعد أن خبره فى المرة الأولى، أو ليحل المشكلة التى أوقع فيها ابنته راحيل. ولكن للزمخشرى رأى آخر، وهو أن يعقوب تزوج براحيل بعد وفاة أختها ليئة، فولدت له بنيامين ويوسف[1] وهو ما يتعارض مع ما جاء فى التوراة على نحو ما أسلفنا، وهو الصحيح.

وعلى هذا يكون تأويل الشمس والقمر فى الرؤيا التى رآها يوسف أنهما أبوه وخالته ليئة، حيث إن أمه كانت قد ماتت بعد ولادة أخيه بنيامين، وقبل أن يرى الرؤيا بزمن. غير أن الفقهاء المسلمين اختلفوا بشأن هذه المسألة، فمنهم من قال إن الشمس والقمر أبواه، والكواكب إخوته، وهو قول لابن عباس رواه السدى، وأحد قولين لقتادة وما قاله ابن جريج وسفيان والضحاك[2] أما القول الآخر لابن عباس فهو أن الشمس خالته والقمر أبوه، وأضاف قتادة: لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت أبيه[3]

(١) الكشاف، ج ٢، ص ٣٠٤

(٢) الطبرى، جامع البيان فى تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٩١

(٣) القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ١٢٢

وأعطى لابان كل بنت منهما جارية من جواريه لتخدمها. ولم تلبث ليئة أن حملت من يعقوب ثم أنجبت له أول أبنائه وأسمته راؤبين، فى حين لم تحمل راحيل ولم تنجب. وبطبيعة الحال فإن ليئة أحبت ابنها البكر حبا شديدا؛ لأنه بمجيئه وطد مكانتها لدى يعقوب، ورفع أسهمها. ثم حملت للمرة الثانية وأنجبت ولدا أسمته شمعون، ثم أتبعته بالولد الثالث الذى أسمته لاوى، فبلغت قمة السعادة وأخذت تزهو على أختها العاقر راحيل، وتتحدث عن رضاء الله عليها وحب زوجها لها، مما يدل على أن العلاقة بين الأختين الزوجتين لم تكن على ما يرام. فمن ناحية نقمت راحيل على ليئة لما دسها أبوها مكانها على أنها هى فدخل بها يعقوب، ثم نقمت عليها لما أخذت تحمل وتلد إلى أن بلغ عدد أولادها ثلاثة كلهم ذكور، الأمر الذى كان له أطيب الأثر فى نفس يعقوب. ولكن ليئة ما لبثت أن أنجبت الابن الرابع فأسمته يهوذا، وتوقفت بعد ذلك عن الإنجاب.

أما راحيل فإنها لما رأت الاهتمام الشديد من جانب يعقوب بأختها ليئة أم أولاده تأججت غيرتها، وأرادت أن يكون لها أولاد هى الأخرى، فاقترحت عليه أن تزوجه جاريتها (بلهة) فتحمل وتلد ولدا يكون لها، وهو ما سبق أن فعلته السيدة سارة قبل أن تلد إسحاق ـ عليه السلام ـ حيث زوجت جاريتها هاجر لزوجها إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلما تزوج يعقوب (بلهة) حملت منه وأنجبت ولدا أسمته راحيلُ «دانا» ثم حملت (بلهة) مرة أخرى وأنجبت ولدا أسمته «نفتالى». ولكن هل توقف الصراع بين الأختين وخفت حدة الغيرة؟! كلا! فإن ليئة التى كانت قد أنجبت بنفسها أربعة أولاد غارت من أختها، وعمدت إلى تزويج جاريتها (زلفة) ليعقوب لكى تنجب منه أولادا. وبالفعل لم تلبث أن حملت منه ثم أنجبت ابنا أسمته «جادا». ثم أتبعته بثان أسمته «أشير».

وهكذا أصبح ليعقوب ثمانية من الأبناء، أربعة من ليئة، واثنان من كل جارية، وإن كان الأربعة ينسبان إلى الأختين. ثم عادت ليئة إلى الإنجاب فولدت ليعقوب ولدين على التعاقب، أسمت الأول «يساكر» والثانى «زبولون» فأصبحت أما لستة أبناء ذكور، ثم أنجبت بنتا أسمتها (دينة). أما راحيل فإنها لما رأت ذلك

أخذت تبتهل إلى الله لكى يمنحها طفلا، فاستجاب لها الله تعالى وحملت ثم أنجبت ولدا أسمته «يوسف». وبعد أن انفصل يعقوب عن خاله لابان وتنقل فى البلاد حملت راحيل للمرة الثانية، غير أنها ماتت بعد أن ولدت ثانى أبنائها الذى دعته «بنيامين». وهكذا أصبح يوسف وأخوه الشقيق بنيامين يتيمين بلا أم فتكفلت بتربيتهما الجاريتان (بلهة) و(زلفة) وإن كانت (بلهة) قد قامت بالعبء الأكبر فى تربيتهما وفاء منها لسيدتها راحيل.

ويتضح مما سبق أن العلاقات بين الأختين ليئة وراحيل لم تكن طيبة، حتى من قبل أن تتزوجا، وذلك بسبب التفاوت الشديد بينهما فى درجة الجمال وما أصاب ليئة من ضعف فى عينيها، الأمر الذى جعلها تغار من أختها بل وتحسدها على الجمال وقوة الإبصار، يدل على ذلك مبادرتها إلى تنفيذ المكيدة التى دبرها الأب لدسها على يعقوب بدلا من أختها راحيل التى كان قد خطبها لمدة سبع سنوات، عمل فيها بإخلاص ودأب لكى يفوز بها، ولكن الأب خدعه بهذه الطريقة الخسيسة. وقد تكون ليئة لعبت دورا فى هذه المكيدة بحيث دفعت الأب إلى خداع يعقوب، كأن تكون بكت وندبت حظها فأشفق الأب عليها وقرر أن يفعل ما فعل. وكيفما كان الأمر فإنه يكفى أنها قبلت أن تستولى على خطيب أختها لنفسها غير عابئة بما قد يترتب على هذا التصرف من نتائج.

ومما يؤكد عمق كراهيتها لأختها أنها ـ حتى بعد أن استولت على خطيبها وتزوجته ـ ظلت تحسدها وتغار منها وتتمنى أن تظل متفوقة عليها، وذلك بالإنجاب لكى ترضى زوجها وتستأثر بحبه واهتمامه. وما من مرة أنجبت فيها ابنا إلا وقالت كلاما يفهم منه أنها تعتبر ذلك نصرا لها على أختها التى لم يشأ الله تعالى أن تنجب، ولا تتورع عن أن تتشفى فيها بدلا من أن تشفق عليها وتراعى خاطرها فى محنتها التى تركت أثرا واضحا عليها، لاشك أن ليئة كانت تلاحظه بسهولة حيث إنهم جميعا كانوا يقيمون على مقربة من بعضهم فى الأرض الواسعة التى كان الأب يمتلكها.

ليس ذلك وحسب، بل إن ليئة هذه إمعانا منها فى الغيرة من أختها لم تتورع - وهى التى أنجبت أربعة أبناء - عن أن تطلب من زوجها أن يتزوج جاريتها لكى ينجب منها كما فعلت راحيل التى زوجته من جاريتها لتنجب لها بعد أن عجزت عن الإنجاب!.

ولنا أن نتصور ما كانت عليه هذه المرأة من صفات سيئة وخصال قبيحة تجمع بين الغيرة العمياء والحقد الأسود والحسد والطمع والشراهة، فضلا عن الأنانية الشديدة وحب الذات والانتهازية المفرطة، وأنها - للأسف الشديد - أنجبت ستة أبناء هم نصف العدد الإجمالى لأبناء يعقوب - عليه السلام - تربوا فى حضنها ونشأوا فى كنفها؛ فتأثروا بما كان فيها من عيوب، وتشربوا بما كان لديها من ميول عدوانية وعادات سيئة وسوء خلق.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان عليه جدهم المدعو (لابان) من لؤم وخسة كشفت عنهما تصرفاته الكثيرة التى من بينها خداعه لابن أخته يعقوب بأن دس عليه ابنته القبيحة سيئة الطباع بدلا من أختها، ثم مغالطته له فيما له من حق عنده، ومحاولاته المستمرة لخداعه والاحتيال عليه دون وازع من دين أو ضمير لعرفنا أى تنشئة سيئة تلك التى نشأ عليها أبناء (ليئة) الستة، وأنهم فى حسدهم لأخيهم يوسف لم يأتوا بجديد، وإنما هى التنشئة الفاسدة التى اضطلع بالعبء الأكبر فيها الأم والجد، حيث كان الأب - وهو يعقوب - يقضى يومه بعيدا عن البيت يرعى غنم خاله ويحرسها له أثناء تنقله بها من مرعى إلى مرعى وهو مطمئن إلى أن زوجاته وأولاده فى رعاية خاله الذى لم يكن يعمل شيئا غير تحصيل المال واكتنازه.

علاقة الزوجتين بأبيهما «لابان»:

أمثال هذا الرجل (لابان) لايحظون عادة بحب أولادهم لهم، بل غالبا ما يكون نصيبهم منهم الكراهية والاحتقار والطمع فيهم وتمنى الشر لهم وترقب موتهم؛ لكى يحصلوا على ثرواتهم. وهذا بالضبط ما حدث للابان من ابنتيه،

فعندما قرر يعقوب الرحيل تاركا خاله بعد أن وفى له بما كان قد التزم به نحوه ووجد أنه يستغله. دعا زوجتيه ـ ابنتى لابان ـ إلى الحقل ليكلمهما فى أمر رحيله بعيدا عن أبيهما، وكان مما قاله لهما: إن معاملة أبيهما له قد تغيرت إلى الأسوأ، وأنهما يعلمان كيف أنه خدمه بكل إخلاص وتفان، ولكنه غدر به وخفض أجره المرة تلو المرة، وكلما تعاهدا على أمر نقضه ظلما له وإجحافا به، ولكن الله تعالى وقف إلى جانبه وأرشده إلى ما يجب عمله لكى يحصل على حقه كاملا من الغنم التى يملكها خاله لابان، وذلك نظير أجره الذى أنكره عليه. فماذا كان جواب البنتين؟ قالتا له إنهما أيضا لهما نصيب وميراث فى بيت أبيهما الذى جعلهما تشعران كما لو كانتا غريبتين عنه بعد أن باعهما وأكل ثمنهما، تقصدان تزويجه لهما مقابل عمل يعقوب له، وأضافتا قائلتين: إن كل الغنى الذى سلبه الله من أبينا هو لنا ولأولادنا، فافعل كل ما أمرك به الله.

وهكذا تظهر كراهية البنتين لأبيهما الطماع الجشع، وتشجعان زوجهما على أخذ ما لدى هذا الأب من مال نظير عمله له لمدة بلغت عشرين عاما. وبغض النظر عن أن يعقوب كان على حق تماما فيما عزم على القيام به، فإن تصرف البنتين على هذا النحو جاء على غير المتوقع لو أن علاقتهما بأبيهما كانت طيبة، كأن ينصحا زوجهما بأن يتفاهم معه، أو بأن يعداه بالسعى لديه لكى يعطيه حقه، ولكن الذى رأيناه هو أنهما انتهزتا الفرصة لكى تؤكدا حقهما فى هذا المال بل وحق أبنائهما فيه، فكأنهما أرادتا أن يفهم يعقوب أن المال ليس له وحده، بل إن لهما فيه مثلما له، ولأبنائهما أيضا. فإذا كان هذا هو اتجاه تفكيرهما منذ البداية فلا شك أن ما أصبح ليعقوب من ثروة كبيرة فيما بعد قد ألهب الصراع بين الأختين من أجل ضمان أن يحصل أولاد كل منهما على أكبر قدر من هذه الثروة، إن لم يكن كلها. خاصة وأنهما سبق أن صارحتا يعقوب بحق أولادهما فيها، ولم يناقشهما فيما قالتاه؛ فكأنه سلم بذلك، وبطبيعة الحال فإن ليئة ذات الأولاد الستة كانت هى صاحبة الكفة الراجحة لأن أولادها سيحصلون على نصف الثروة على الأقل، أما إذا مات أحد الإخوة الستة الآخرين غير الأشقاء أو اختفى، فإن نصيبهم سوف يزيد؛ لذلك فإن حُبَّ يعقوب ليوسف لم يكن هو

وحده السبب فى غيرتهم منه وحسدهم له ورغبتهم فى التخلص منه، وإنما كان هناك الخوف من أن يترجم يعقوب هذا الحب إلى شىء آخر هو أن يخص يوسف بثروته وتركته كما فعل جدهما إسحاق من قبل مع أبيهم، مما أوغر صدر أخيه عيسو عليه، فعزم على قتله، مما دفعه إلى الفرار منه، فذهب إلى خاله لابان.

علاقة الإخوة ببعضهم:

لاشك أن العلاقات السيئة والمتوترة بين الأختين ليئة وراحيل انعكست على العلاقات بين أبنائهما، صحيح أن «دانا» و«نفتالى» لم يكونا أبناء حقيقيين لراحيل وإنما أنجبتهما لها جاريتها «بلهة» ومع ذلك فلا يستبعد أن تكون قد استخدمتهما فى الصراع الذى نشب بينها وبين أختها، ورغبت فى أن تضمن لهما حقوقا مثل حقوق رأوبين وإخوته، ولم لا وهما ابناها، مثلما أن «دانا» و«نفتالى» ابنان لراحيل؟! وهكذا أصبح الاثنان فى جانب وأولاد ليئة وجاريتها زلفة: جادا وآشير، فى جانب، وإن كنا نرجح أن يكون انتماء أبناء بلهة وزلفة إليهما وهما جاريتان قد أوجد بينهما رابطة خفية نابعة من إحساسهم بأنهم أقل شأنا من إخوتهم غير الأشقاء، وأدنى مكانة، أو ما يسمى الإحساس بالدونية، الأمر الذى جعلهم يتعاطفون مع بعضهم، ولو فى الخفاء. أما فى العلن فإنهم كانوا يتعاملون معهم بطريقة تنم عن خضوع كامل لهم، أو لِنَقُلْ تبعية شديدة، فإذا عزموا على القيام بعمل انضموا إليهم فيه، كما حدث لما دعاهم رأوبين للهجوم على إحدى القرى للانتقام من سكانها فاستجابوا له وفاجأوا القرية والناس نيام، فقتلوا رجالها غيلة، وسَبَوْا نساءها وأطفالها، ونفس الشىء لما عزموا على قتل يوسف. وإن كنا نرجح أن الذى اقترح الاكتفاء بإلقاء يوسف فى الجب كان واحدا منهم وليس من أبناء ليئة.

كذلك فإن أبناء ليئة ـ وبالذات الذين ولدتهم أولا وهم رأوبين وشمعون ولاوى ـ كانوا قد سمعوا من أمهم، ثم بعد ذلك من أبيهم عن الخلاف الشديد الذى كان لايزال محتدما بينه وبين أخيه عيسو، وهو توأم يعقوب الذى يدعى

أحقيته بخلافة والدهما إسحاق فى زعامة الأسرة وفى النبوة، فَوَعَوُا الدرس، أو على الأقل وعاه أحدهم، ونرجح أن يكون رأوبين بكر والديه والمفضل لدى أمهم، والذى كانت تعده لخلافة يعقوب نكاية فى أختها راحيل؛ ولاعتقادها بأن كونها البنت الكبرى والتى سبقت إلى الزواج بيعقوب، وأول من أنجب له، يعطيها الحق فى أن تكون أم زعيم الأسرة ونبى القوم، فخافوا ـ أى الأم وأبناؤها ـ أن يتكرر ما حدث لعيسو، أو حدث منه، فقرروا أن يبدأوا مبكرين مع أبناء يعقوب من راحيل؛ لكى يحولوا دون أن يحصل أحدهم على الرئاسة والنبوة.

كان طبيعيا ـ وقد ماتت الزوجة الجميلة راحيل التى كان يعقوب يحبها، وربما يكون حبه لها قد تضاعف بعد ما تحملته من عناء وإحباط، سواء لزواجه بأختها نتيجة للمكيدة التى دبرها خاله، أو لعدم حملها وإنجابها وشماتة أختها التى كانت تكرهها وتغار منها وتكيد لها ـ أن يحزن يعقوب بشدة، وينطوى على نفسه يضم إليه ابنيها منه: يوسف وبنيامين، يحيطهما بحبه تعويضا لهما عن أمهما التى فقداها، ويبذل لهما رعايته نظرا لصغر سنهما بالمقارنة بأعمار إخوتهم العشرة الذين كانوا قد شبوا عن الطوق وأصبحوا رجالا وشبابا أقوياء، فرأوبين ابنه البكر كان قد أصبح فى عداد الرجال. يقوم بما كان أبوه يقوم به من رعى الغنم والسهر على شئون الأسرة، يساعده إخوته التسعة الآخرون، على تفاوت فى الجهد يرجع إلى تفاوت أعمارهم. وكان رأوبين ـ على ما يبدو ـ يعمل بجد ونشاط لكى يقنع أباه أنه الأفضل والذى لا غنى له عنه من بين أبنائه جميعا، ويعد نفسه فى ذات الوقت ليكون خليفته. كذلك فإن الأم التى أصبحت بلا منافس بعد موت أختها راحيل عملت من جانبها على أن يكون لأولادها المكانة المرموقة واليد العليا، وحرصت بشدة على أن يظلوا متضامنين متماسكين أمام إخوتهم غير الأشقاء، وأن يجعلوا قيادتهم إلى أخيهم الأكبر رأوبين يطيعونه فيما يأمرهم به ولا يشقون عليه عصا الطاعة.

ويبدو أن وقوف الأم إلى جانب رأوبين لم يكن السبب فيه أنه بكرها فقط، وإنما كانت هناك أسباب أخرى دعمت هذا الاختيار، منها أن رأوبين كان يحمل

من صفات أمه الكثير، كالحسد والحقد والطمع والجشع وفساد الضمير، كما كان مدللا أنانيا لا يفكر إلا فى ذاته، وذلك نتيجة للطريقة التى اتبعتها فى تربيتها له باعتباره بكر أبيه وخليفته الذى سيئول إليه الأمر من بعده، ومنها أيضا أنه كان عنيفا عدوانيا فاسدا لا يتورع عن القتل، وهو ما فعله بأهل القرية التى قيل إن ابن زعيمها اغتصب أخته دينة، ثم رغب فى الزواج بها تصحيحا لخطئه، كما عرض أبوه على يعقوب وبنيه أن يتصاهر الفريقان، ويعيشون معا فى سلام وأمان، فما كان من رأوبين إلا أن تظاهر بقبول الاقتراح، ثم فاجأ القرية هو وإخوته فأعملوا السيوف فى رقاب رجالها، ثم نهبوا القرية وسَبَوُا النساء والأطفال. ولما علم يعقوب ـ عليه السلام ـ بما فعله ابنه لامه بشدة قائلا إن تصرفه على هذا النحو كدر حياته، وأظهره أمام الناس فى صورة الذى لا يفى بالعهد، ولكن ابنه لم يبال. كذلك جاء فى التوراة أن رأوبين هذا انتهز فرصة وجود أبيه بعيدا عن البيت وذهب إلى سريته (بلهة) أم أخويه دانا ونفتالى فضاجعها، وعلم يعقوب وحزن لذلك. و(بلهة) هذه كانت جارية راحيل أم يوسف ـ عليه السلام ـ واختياره لها ليزنى بها لا يخلو من مغزى كذلك؛ فإنها هى التى تكفلت بيوسف وأخيه بنيامين بعد موت أمهما. ولما أن كانت التوراة تصف الاغتصاب بأنه إذلال للمرأة، وأحيانا تستخدم كلمة (أذلها) بمعنى (اغتصبها)، فإن ما فعله رأوبين هذا ليس منبت الصلة بموقف أمه من أختها راحيل والذى يمتد إلى جاريتها التى أدى موت سيدتها إلى بقائها بدون حماية فى مواجهة ليئة وأبنائها، وعلى رأسهم رأوبين. ولاننسى الأثر الذى أحدثه هذا الاعتداء البشع فى نفس ابْنَىْ (بلهة) أَخَوَىْ رأوبين غير الشقيقين.

أما يعقوب ـ عليه السلام ـ فيبدو أنه كان قد تقدم فى السن، وأصابه الضعف، أو أن اليأس من إصلاح حال زوجته ليئة كان قد بلغ مداه. فبعد أن أصبح أكبر أبنائها فى عداد الرجال استعصت على زوجها مستغلة هؤلاء الأبناء الذين كانت قد أقنعتهم بأنها إنما تواجه أباهم حماية لهم ولمصالحهم التى يهددها أخواهما من أختها راحيل، وتنصحهم بالانتباه إلى ما يدبره أبوهم لمصلحة

يوسف وأخيه بنيامين. وعجز يعقوب عن إقناعها بالإحسان إلى ابنيه اليتيمين، ولما أحس منها كراهيتها الشديدة لهما رأى أن يتولى بنفسه أمرهما، وعندئذ استغلت المرأة اللئيمة الوضع لتضاعف من خوف أبنائها من يوسف ومن حسدهم له.

المجنى عليه (يوسف عليه السلام):

يوسف هو الابن الحادى عشر ليعقوب ـ عليه السلام ـ ولدته له زوجه راحيل بعد سنين كثيرة قضتها بدون حمل، وكانت ولادته بعد أن انفصل عن خاله (لابان) ومضى يتنقل بأولاده وثروته من الغنم من مكان إلى مكان، فالتقى بأخيه عيسو مرة، وسافر إلى حيث كان أبوه إسحاق يقيم فى الخليل حيث مات فدفنه، ثم أنجبت له راحيل ابنه الثانى عشر وآخر أبنائه (بنيامين) الذى توفيت بعد وقت قليل من ولادته، وبعد ذلك انتقل إلى مدين حيث أقام. ولا يعرف على وجه التحديد كم كان عمر يعقوب عند ولادة يوسف ـ وإن قيل إنه كان قد تقدم فى العمر ـ ولكن الذى يهمنا هو أن نعرف كم كان عمر يوسف يوم أن ألقى به إخوته فى الجب؛ لأنه هو المجنى عليه فى هذه الجريمة.

جاء فى التوراة (سفر التكوين) أن يوسف كان له من العمر سبع عشرة سنة يوم أن ألقى به إخوته فى البئر. وهو ما قاله بعض المفسرين، غير أن هناك من رأى أن يوسف كان أصغر من ذلك. ومن هؤلاء القرطبى[1] الذى يقول: إن يوسف ـ عليه السلام ـ كان فى الثانية عشرة من عمره لما رأى الرؤيا، وهى غير بعيدة من الوقت الذى ألقى فيه فى الجب. والزمخشرى الذى قال عن وهب: إن يوسف رأى الرؤيا وهو ابن اثنتى عشرة سنة[2]. أما سيد قطب[3] فيقول: إن يوسف كان فى حوالى الرابعة عشرة، تنقص ولا تزيد. وهو ما نرجحه لعدة أسباب:

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٦

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٢

(٣) فى ظلال القرآن، المجلد الرابع، ص ١٩٧٩

الأول: أن ملازمته لأبيه بحيث لا يخرج للعمل أو للترويح عن نفسه مع إخوته هو تصرف يخالف المألوف ممن هم فى السابعة عشرة ويعدون من الشباب لا من الأطفال أو الصبية الذين يمكن للآباء أن يسيطروا عليهم ويتحكموا فى تحركاتهم؛ لأنه بالدخول فى مرحلة المراهقة يتجه الشباب إلى التصرف بما يؤكد استقلاله وحقه فى أن يتصرف حسبما يريد تأكيدا لذاته، وإثباتا لخصوصيته، ومن الحديث الذى دار بين إخوة يوسف وأبيهم بشأن ذهابه معهم ليرتع ويلعب نلاحظ أن يعقوب هو الذى عارض فى ذهابه، ثم وافق بعد ذلك دون أن يكون ليوسف رأى فى الحالتين.

ثانيا: أن الرجل الذى أرسلته السيارة ليدلى بدلوه فى الجب، لما أخرج يوسف مع الدلو قال: يا بشرى هذا غلام، والثانية عشرة هى السن التى يطلق فيها لفظ الغلام، وبعدها يسمى فتى، فشابا، فرجلا.

ثالثا: هناك دليل آخر فى قوله تعالى: ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾[1]

قال مالك فى رواية لابن القاسم عنه: لا يلتقط إلا الصغير.

رابعا: وقوله: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾[2]

وذلك أمر يختص بالصغار الذين يعجزون عن التصرف إذا هاجمهم ذئب، كأن يهربوا منه أو يلوذوا بمكان يحتمون به، أو حتى يقاومون هجوم الذئب بشىء كعصا أو حجر أو غير ذلك.

خامسا: وقولهم: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[3]

واللعب والرتع لا يكون إلا للصغار، أما من كانوا فى السابعة عشرة فإنهم يستنكفون أن يلعبوا ويرتعوا، خاصة إذا كانوا برفقة من هم أكبر منهم سنا، ويميلون إلى أن يحاكوهم فيما يفعلونه.

---

(١) يوسف: ١٠

(٢) يوسف: ١٣

(٣) القرطبى، المرجع السابق، ص ١٣٣، ١٣٤ والآية: ١٢ من سورة يوسف

هذا من ناحية العمر، أما بالنسبة للسمات الأخرى ليوسف ـ عليه السلام ـ فيأتى فى مقدمتها ما كان عليه من حسن شديد، يؤكد ذلك ما فعلته النسوة لما دعتهن امرأة العزيز حيث قطعن أيديهن لما خرج عليهن. ولقد قيل إنه ورث هذا الحسن عن جدته الكبرى السيدة سارة زوج إبراهيم ـ عليه السلام ـ كذلك فقد كانت أمه راحيل جميلة، وذلك على خلاف أختها ليئة التى كانت تفتقر إلى الجمال، فربما تكون قد أورثت ذلك لبعض أبنائها فحقدوا على يوسف. وبطبيعة الحال فإن الحسن الذى اتصف به يوسف لم يقتصر على وجهه فقط بل شمل جسمه أيضا، فلم يكن به عيب أو مصابا بعلة أو مشوبا بشائبة.

أما أخلاقه فهى النموذج الذى يطمح إلى بلوغه الأخيار؛ فقد كان صابرا محتسبا، هادىء الطباع، محسنا، رقيق المشاعر، مرهف الأحاسيس، واسع الصدر، قوى الإرادة، صادقا، إذا قال فعل، وإذا وعد أوفى، أمينا، مخلصا وفيا، متسامحا، منكرا لذاته، جريئا فى الحق، لا يخاف إلا من الله، ولايخشى سواه، متواضعا، ومع ذلك فقد كان لديه ميل إلى الحزن النبيل، ربما لأن أمه ماتت وهو صغير، أو بسبب ما واجهه من محن وابتلاءات.

علاقة الجريمة بالرؤيا التى رآها يوسف عليه السلام:

اختلف المفسرون بشأن ما إذا كان إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ قد علموا بالرؤيا التى رآها وقصها على أبيه فنصحه بأن لايقصها عليهم حتى لايكيدوا له، أو لم يعلموا. وحسب ما ورد فى التوراة فى سفر التكوين[1]: «وحلم يوسف حلما وأخبر إخوته فازدادوا أيضا بغضا له، فقال لهم: اسمعوا هذا الحلم الذى حلمت، فها نحن حازمون حزما فى الحقل، وإذا حزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى. فقال له إخوته: أللملك تملك علينا ملكا أم تتسلط علينا تسلطا؟! وازدادوا أيضا بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه. ثم حلم أيضا حلما آخر وقصه على إخوته فقال: إنى حلمت حلما أيضا، وإذا

(١) سفر التكوين، إصحاح ٣٧

الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لى. وقصه على أبيه وعلى إخوته، فانتهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم الذى حلمت؟ هل نأتى أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟! فحسده إخوته، أما أبوه فحفظ الأمر» ومعنى هذا أن الرؤيا لم تكن سرا بالنسبة لهم، وهو يخالف ما جاء فى القرآن مخالفة صريحة على نحو ما رأينا، وبالتالى تكون نصيحة يعقوب لابنه بأن لايقص رؤياه على إخوته حتى لا يكيدوا له كيدا لا محل لها.

غير أننا نرجح أن يكون الفريق الذى قال إن إخوة يوسف علموا بما رآه أخوهم[1] قد افترضوا أن ذلك قد حدث من طريق آخر، وهذا محتمل كأن يكونوا تصنتوا وهو يحدث أباه عنها، أو أن أحدا آخر سمعه وأخبرهم. ونستبعد أن يكون يوسف هو الذى أخبرهم؛ لأنه لايتصور ممن كان مثله أن يعصى أباه فيما أمره به من عدم إطلاع إخوته على رؤياه. وقد كان ذلك من الفقهاء لتبرير ازدياد كراهية إخوة يوسف له وتدبيرهم للتخلص منه. وإن كنا نرى أن الأمر لم يكن يحتاج إلى ذلك نظرا لما بيناه من طبيعة هؤلاء الإخوة، وما كانوا يكنونه من مشاعر الغيرة والحقد والحسد لأخيهم، وهو ما كان واضحا أمام أبيهم، وإلا ما نصح ابنه بعدم إطلاعهم على رؤياه.

مما تقدم نرى أن الرؤيا التى رآها يوسف ـ عليه السلام ـ وقصها على أبيه وإن كانت هى السبب المباشر فيما قرره إخوته من قتله أو طرحه أرضا، بمعنى أخذه إلى مكان بعيد وتركه بحيث يعجز عن العودة إلى أبيه، فإنه كانت هناك أسباب أخرى غير مباشرة سبقت الرؤيا وهى الغيرة والحسد والحقد من إخوته نحوه، وبخاصة إخوته الستة الأشقاء أبناء ليئة، وهى المشاعر التى تضاعفت بعد أن ماتت أمه وحاول أبوه أن يعوضه هو وأخاه بنيامين عنها؛ نظرا لصغر سنهما وضعفهما بالمقارنة بما كان عليه إخوتهما الذين كانوا يكبرونهما كثيرا.

ويبدو أن يعقوب ـ عليه السلام ـ لما سمع ما قصه عليه ابنه من أنه رأى أحد

(١) الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن) ج ١٢، ص ٩١

عشر كوكبا والشمس والقمر وقد سجدوا له، استدل بذلك على أنه سيكون لابنه شأن عند الله وعند الناس، فتعلق به أمله، وشغف به قلبه، فضاعف من خوفه عليه، وزاد من رعايته له باعتباره النبى المرتقب، والابن الذى أحبه الله واصطفاه دون بقية إخوته، بل دون الناس جميعا.[1] ولا شك أيضا أن يعقوب ـ عليه السلام ـ كان يأمل أن تتحقق فى أبنائه كلهم أو بعضهم أو حتى واحد منهم دعوة جده إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلما رأى ما فعله أبناؤه الآخرون ـ أبناء ليئة والجاريتين ـ من آثام ومعاص انحصر أمله فى يوسف وأخيه بنيامين. ولم يطل انتظاره، فها هو يوسف يرى ما رآه وقصه عليه فشرح صدره وبعث الطمأنينة فى قلبه إلى أن النبوة ستستمر فى ذرية إبراهيم، وفى نسل يعقوب بالذات. وبالتالى فإنه لم يستطع كتمان حبه الشديد ليوسف ومزيد عطفه عليه دون إخوته[2] ونلاحظ فيما قاله يعقوب ليوسف وهو ينصحه بألا يطلع إخوته على رؤياه قوله تبريرا لنصيحته: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[3]

أى: إن الشيطان قد يوسوس لهم ليكيدوا لك، ولم يقل له لاتقص رؤياك عليهم حتى لا يكيدوا لك لأنهم يكرهونك أو يحسدونك أو يحقدون عليك، هو تصرف يدل على الحصافة والذكاء والحرص على أن تكون العلاقات بين يوسف وإخوته طيبة، مما ينفى ما قيل من أن يعقوب لم يكن يتوخى العدل بين أبنائه ولا الحرص فى التعبير عن مشاعره نحو يوسف وأخيه أمام بقية إخوتهما. وإنما هو الحسد والحقد من أبناء ليئة الستة نحو يوسف وأخيه رضعوه مع لبن أمهم، وتمثلوه فى تنشئتها وتربيتها لهم على الذى بيناه. وليس ذنب يعقوب ـ عليه السلام ـ أن بذل المزيد من الرعاية لابنيه اليتيمين الصغيرين، وإنما الذنب ذنب أولاده الذين حالت أنانيتهم وحقدهم وحسدهم بينهم وبين إدراك هذا الدافع النبيل، ولو أنهم أدركوه لفعلوا مثلما كان أبوهم يفعل، فأحبوا أخويهما واحتضنوهما وبذلوا لهما العناية، وأحاطوهما بالرعاية.

---

(١) الشيخ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ١٢، ص ٢٠٩

(٢) ابن الخطيب (يوسف الصديق) ص ٣٨

(٣) سورة يوسف، من الآية: ٥

وما كان استنباط يعقوب لكيد إخوة يوسف له صادرا من فراغ، وإنما كان استنباطا استند فيه إلى ما لاحظه على سلوكهم، وعلمه من مواقفهم، وأدركه من عاداتهم وأفكارهم منذ أن شبوا عن الطوق، وبلغوا مرحلة الشباب ثم الرجولة، وهما المرحلتان اللتان يكون لهذه الأمور فيهما مغزاها وقيمتها، وليس كالأب إدراكا لمشاعر أبنائه وفهما لهم ووعيا بحقيقة دوافعهم، فما بالنا إذا كان الأب هنا نبيا كريما وابن نبى وحفيد نبى؟!

ولعل ما قاله هؤلاء الإخوة جازمين مقسمين: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾[1] يؤيد ما ذهبنا إليه من أن عداءهم وكراهيتهم وحسدهم ليوسف أولا ثم لأخيه معه ـ فيما بعد ـ قديمة ترجع إلى مرحلة التنشئة الاجتماعية، كما تدل على إصرارهم وضيق أفقهم، وخلطهم الواضح بين الأمور حيث قابلوا بين الحب وبين عددهم وكونهم عصبة، وهى نظرة مادية صرفة لا تأخذ بعين الاعتبار العوامل الإنسانية: كصغر السن واليتم وغيرها. بل إنهم تناقضوا مع أنفسهم فيما قالوه؛ لأن كونهم عصبة يعنى أنهم ـ من ناحية ـ يجدون إشباعا عاطفيا يوفره لهم اعتصابهم، حيث يلاحظ أن الأبناء حين يبلغون سن الشباب يميلون إلى الاستقلال عن آبائهم فى التصرف والتفكير والتدبير، ولا يبالون كثيرا إذا فقدوا شيئا من حب الآباء طالما أن ذلك لن ينقص من حريتهم واستقلالهم، ويستعيضون عن ذلك بما يقوم بينهم من مشاعر المودة والصداقة والتفاهم وبين من هم فى مثل سنهم. ومن ناحية أخرى فإنهم بقولهم عن أنفسهم إنهم عصبة اعترفوا بأن يوسف وأخاه مستبعدان من عضوية هذه العصبة، وبالتالى منبوذان من أعضائها العشرة مما يتطلب وجود ما يعوضهما عن ذلك من حنان الأب واهتمامه؛ حتى لايشعران بالوحدة.

أما إذا كانوا قد قصدوا ما قاله رشيد رضا فى تفسيره لهذه الآية من أن يعقوب فضل ابنيه الصغيرين عليهم على الرغم من عدم غنائهما، أى ما يقومان به من

---

(١) سورة يوسف، من الآية: ٨

عمل، أو ما يبذلانه من جهد لصغر سنهما، بينما هم عصبة من عشرة رجال أقوياء أشداء تقوم له بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية، فإنه أدل على ماديتهم الشديدة، حيث أرادوا أن يتقاضوا حبا يساوى ما يبذلونه من جهد وما يقومون به من عمل دون أن يولوا الجانب العاطفى فى العلاقة أى اعتبار. ولعل هذا الضرب من التفكير المغرق فى المادية هو الأساس الأول الذى قامت عليه نظرة اليهود المادية إلى العلاقات الإنسانية، وأن كل شىء لديهم يُقَوَّمُ بالمال أو بالمنفعة بما فى ذلك العواطف والمشاعر!.

كذلك نلاحظ أنهم لم يكونوا يتكلمون عن أبيهم - أو يتحدثون إليه - بما يليق به من الاحترام والتبجيل والأدب الذى يتناسب ومقام الأبوة، فتارة يقولون عنه إنه فى ضلال: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1]

يعنى أنه ضل طريق العدل والمساواة ضلالا مبينا لا يخفى على أحد، إذ يفضل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة، على العصبة أولى القوة والكسب والنجدة. وتارة أخرى يقولون له: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾[2]

وحرضا معناها: أشفى على الهلاك من شدة المرض، وهى كما نلاحظ كلمات جافة لايجوز أن توجه إلى أب، وبالذات إذا كان فى ظروف كتلك التى مر بها يعقوب - عليه السلام - مما جعله يقول لهم فى نبرة حزينة، وهو يشعر أنه مهيض الجناح: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[3]

ولا أشكو إلى أحد منكم حتى تضيقوا بى هكذا[4]. وتارة ثالثة يقولون له: ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[5]

وهو ما يدل على سوء أدبهم ووقاحتهم، وينفى أن يكونوا - كما زعم بعض

(١) سورة يوسف، من الآية: ٨
(٢) محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص ٢١٢ والآية: ٨٥
(٣) سورة يوسف، من الآية: ٨٦
(٤) الزمخشرى (الكشاف) ج ٢، ص ٣٣٩
(٥) سورة يوسف، من الآية: ٩٥

المفسرين ـ أنبياء، وبالتالى لا يصح اتهامهم أو وصفهم بما يسىء إليهم. وممن قالوا إنهم كانوا أنبياء ابن وهب عن ابن زيد فى قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾[1]

قال: أبواه وإخوته. قال: فنعاه إخوته ـ وكانوا أنبياء ـ فقالوا: ما رضى أن يسجد له إخوته حتى سجد له أبواه[2] وهذا الذى قاله ابن زيد عن نبوة إخوة يوسف جعل بعض المفسرين يجدون حرجا فى وصفهم بما يستحقونه، ويلجأون فى تفسيرهم لما ورد فى القرآن من أفعال وأقوال صدرت عنهم إلى معان تختلف عن المعانى الصحيحة؛ ظنا منهم أن من شأنها أن لا تسىء إليهم، وهو خطأ لا يجوز الوقوع فيه؛ لأنهم ـ من ناحية ـ ليسوا بأنبياء، ومن ناحية أخرى إن ذلك التصرف من المفسرين يفتقر إلى الأمانة العلمية التى من شأن عدم الالتزام بها أن نوقع الناس فى الخطأ أو نجعلهم يظنون أن فى الأمر محاباة.

أما الزمخشرى فإنه لم يقطع بنبوتهم، وإنما قال فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾[3]:

إن يعقوب علم أن يوسف يكون نبيا وإخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب؛ فلذلك قال: وعلى آل يعقوب.[4] وهو ـ كما نرى ـ استدلال غير دقيق. والصحيح ما قاله ابن كثير[5] وهو: «أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف. وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفى هذا نظر، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾[6]

وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال

(١) سورة يوسف، الآية: ٤
(٢) الطبرى، المرجع السابق، ص ٩١
(٣) سورة يوسف، من الآية: ٦
(٤) المرجع السابق، ص ٣٠٣
(٥) المرجع السابق، ص ٣٠٠
(٦) البقرة: ١٣٦

للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب، يذكر الله تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم». وهو رأى القرطبى الذى قال إن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أولا ولا آخرا؛ لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم، بل كانوا مسلمين، فارتكبوا معصية ثم تابوا. وقيل: كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلة نبى، فكانت هذه زلة منهم، وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدمناه[1].

أما محمد رشيد رضا فيقول[2]: «إن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء يومئذ ولا بعده، كما حققنا فى محله، وإنه من التنطع والغفلة استشكال اللعب المباح فى نفسه ممن شهد الله عليهم بالكيد لأخيهم والائتمار بقتله وتعمد إيذائه، وفجيعة أبيهم به، وكذبهم عليه، وغير ذلك من كبائر المعاصى»

التآمر للتخلص من يوسف:

كان هذا هو الجو الذى نشأ فيه التفكير فى الجريمة : حسد وحقد وكراهية اجتمعت فى نفوس الإخوة العشرة ضد أخويهما الصغيرين اليتيمين، وجعلتهم يعانون من القلق والتوتر المستمرين اللذين لا سبيل إلى التخلص منهما إلا باختفاء هذين الأخوين أو أحدهما أولا، ثم من بعده الثانى الذى كان لا يزال صغيرا لايمثل تهديدا حـالا لهم، بخلاف يوسف.

وواضح مما ورد فى القرآن أن الإخوة العشرة اجتمعوا ليتباحثوا فى أمر يوسف وقد عقدوا العزم على التخلص منه ، ولكن كيف؟ هل بالقتل بحيث يضمنون اختفاءه إلى الأبد؟ أم بأخذه إلى أرض بعيدة مهجورة وتركه فيها بحيث يعجز عن العودة إلى أبيه إن هو سلم فيها من الهلاك؟!.

هذه هى الجريمة، أما الباعث إليها ـ كما يقال فى القانون ـ فهو أن يستأثروا بحب أبيهم دون يوسف، فلا يهتم إلا بهم بعد أن يختفى يوسف الذى يشغله عنهم، ويستحوذ ـ فى ظنهم ـ على النصيب الأوفر من حبه وعطفه. وهو كما

(١) الجامع لأحكام القرآن، المرجع السابق، ص ١٣٣

(٢) المرجع السابق، ص ٢١١

نرى باعث أنانى شرير دفعهم إلى الاستخفاف بحق أخيهم فى الحياة، والاستخفاف بما سيصيب أباهم من آلام وأحزان، وما سيتحمله من معاناة بقية حياته ، وإنما فكروا فى مصلحتهم فقط، رغم أنها لم تتعرض للضرر أو حتى للخطر. وقال محمد بن إسحاق بن يسار: «لقد اجتمعوا على أمر عظيم ، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه، على كبر سنه، ورقة عظمه ـ مع مكانه من الله فيمن أحب طفلا صغيرا ـ وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه»[1].

ولكن الحسد والحقد والكراهية تسلطت عليهم حتى أفقدتهم عقولهم، وأفسدت مشاعرهم، فباتوا يظنون أنهم على حق، وأن الجريمة ـ فى حد ذاتها ـ هينة يمكن التخلص من آثارها بمجرد ارتكابها، وذلك بأن يعودوا قوما صالحين فيتوبوا عما اقترفوه، ويكفرون عما ارتكبوه، ولا يعودون إلى مثله، فيرضى عنهم أبوهم، ويرضى الله تعالى عنهم!!.

هذا هو تفكير من يقول عنهم بعض المفسرين إنهم أنبياء، وهو كما نرى لايختلف فى شىء عن تفكير المجرمين العاديين الذين يقول الواحد منهم لنفسه: سأرتكب جريمة السرقة لأحصل على مال كثير ثم أتوب، أو يقول: سأجلب كمية كبيرة من الهيروين يكفى ربحها لكى أعيش فى رغد بقية عمرى ولا أعود إلى مثلها، أو يقول: سأزنى بهذه المرأة الجميلة مرة واحدة ثم لا أعود إلى ذلك! فأين الاختلاف بين هذا وذاك وبين إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ ؟! طبعا لا اختلاف، وإنما الجميع مجرمون جديرون بالعقاب. ولو أنهم قتلوا أخاهم لكان قتلا مع سبق الإصرار والترصد، وهو الذى يعاقب عليه بالإعدام لما فيه من دلالة على خطورة مرتكبه الذى فكر ودبر وكان أمامه الوقت الكافى لكى يعدل عن التنفيذ، ولكنه مضى فيه إلى النهاية. ولا يختلف ترك يوسف فى مكان مهجور موحش على أمل أن يموت، كأن يفترسه وحش أو يقتله مجرم ـ طالما أنهم توقعوا هذه النتيجة ورضوا بتحققها، فهو قتل على أى الأحوال.

(١) ابن كثير، المرجع السابق، ص ٣٠١

ولكن يبدو أنه لم يكن هناك إجماع من الإخوة العشرة على قتل يوسف أو تركه فى المكان البعيد المهجور الذى يحتمل أن يموت فيه، وهـذا أمر يتفق مع ما سبق أن بيناه من طبيعة العلاقات بين هؤلاء الإخوة الذين كان ستة منهم أشقاء، والأربعة الآخرون غير أشقاء لا للستة ولا فيما بينهم، حيث كان كل اثنين من أم مختلفة جارية مملوكة لا تملك من أمر نفسها شيئا، وكذلك ولداها. وإن كان هؤلاء الإخوة غير الأشقاء قد اعتادوا أن يسايروا إخوتهم الستة أبناء ليئة، وبخاصة الأخوين اللذين أنجبتهما لها جاريتها زلفة، وهما (جاد) و(أشير)، فكانا أقرب إلى أولادها الستة من الأخوين الآخرين اللذين ولدتهما جارية راحيل (بلهة) وهما (دان) و(نفتالى) واللذين نرجح أن تكون كراهيتهما ليوسف وبنيامين أقل من كراهية الإخوة الثمانية الآخرين، لذلك أرجح أن يكون الأخ الذى قال: ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾[1] هو أحد هذين الاثنين، إما دان أو نفتالى، وليس كما قال السدى: إنه يهوذا، رابع أبناء ليئة، وليس كما جاء فى التوراة: إنه رأوبين بكر يعقوب الذى بينا ما كان عليه من ميل إلى القسوة والعنف وحب للشر، وكيف أن إخوته الأشقاء ـ ومنهم يهوذا ـ كانوا يشاركونه هذا الميل، ويساهمون معه فى أفعاله الإجرامية. وبطبيعة الحال فإن بقية الإخوة ـ بما فيهم أبناء ليئة ـ رضوا بهذا الاقتراح، ليس لأن شعورا بالشفقة على يوسف انتابهم فجأة جعلهم يعدلون عن فكرة قتله بهذه الطريقة أو بتلك، ولكن لأن رفض الاقتراح كان يحتمل أن يؤدى إلى انسحاب صاحب الاقتراح، وربما ينضم أخوه إليه، وفى هذه الحالة لم يكن الآخرون يأمنون أن يفشى الأخوان سر اختفاء يوسف، أو على الأقل يتنصلان من تهمة قتله عندما يفتضح الأمر، ويقولان : إنهما اعترضا على قتله، واقترحا خلاف ذلك مما يكون احتمال موته فيه ضعيفا. وبالنظر لما لاحظناه من وصف الإخوة لأنفسهم بأنهم عصبة، فإن روح العصبة أو العصابة هى التى سيطرت على الموقف وجعلت

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٠

الأخرين يوافقون على الاقتراح بسهولة؛ لأن من شأن ذلك بقاء العصبة متماسكة متضامنة متماثلة فى المسئولية عما وقع.

وهكذا أجمعوا الرأى على أن يكون التخلص من يوسف بأن يلقوه فى غيابة الجب، وهو جب كان معروفا لهم يستخدمونه، وبالتالى فإنه يقع غير بعيد من حيث يقيمون، وظهر من قولهم: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾[1] أنهم لم يعودوا يريدون موته، وإنما اكتفوا بأن يحمل بعيدا عنهم فلا يراه أبوه بعد ذلك. والسيارة: هم جماعة من المسافرين الذين يسيرون فى الأرض يقطعون المسافات من مكان إلى آخر لأجل التجارة، فإن عثروا عليه فى الجب أخذوه إلى البلد الذى يقصدونه، وقد يكون بعيدا فيتم لهم ما أرادوا. ويكشف صاحب الاقتراح عن مستوى رفيع من الحكمة وبعد النظر، لا نظن أنه كان مما يتمتع به شخص مثل رأوبين العدوانى المتهور الخائن، فهو يقول: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[1]

يقصد أن يقول لهم: إنكم إن كنتم تريدون الصواب فهذا هو الصواب؛ لأن جناية قتله غير مقصودة لذاتها، ولكنكم ترغبون فى الاستئثار بحب أبيكم دونه فيكفى إذن أن يختفى فلا يراه أبوه ثانية.

أما التوراة فإنها ـ كالعادة ـ تناقضت مع نفسها فيما ذكرته فى هذا الصدد؛ فقد جاء فى سفر التكوين «أن رأوبين مكر بإخوته لما اقترح أن يلقوا بيوسف فى البئر، إذ كان يريد أن يعود إليه بعد أن ينصرفوا ليخرجه ويرجع به إلى أبيه! وأن البئر كانت فارغة من الماء وقت أن وضعوا يوسف فيها، فمرت سيارة تجار الإسماعيليين (العرب) مسافرة إلى مصر، فاقترح عليهم يهوذا إخراجه وبيعه لهم؛ إذ لا فائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم».

ووجه التناقض فى الكلام أن رأوبين كان بكر يعقوب فهو أكبر إخوته والمتزعم لهم يطيعونه وينفذون ما يأمرهم به، فلو أنه طلب منهم أن يصرفوا النظر عن قتل يوسف أو إلقائه فى الجب لفعلوا. أما أنه أراد أن يخدع إخوته ويعود ليأخذ يوسف من الجب ويعيده إلى أبيه فهذا سلوك لا يمكن أن نفسره إلا بأحد أمرين:

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٠

الأول أن رأوبين كان أجبن من أن يواجه إخوته بعدم رغبته فى إلقاء يوسف فى الجب، وهو ما لا يمكن تصوره من شخص قاتل زان سىء الأدب. أما الأمر **الثانى** فهو أن رأوبين إنما قصد أن يفضح إخوته أمام أبيهم، وذلك بأن ينتظر حتى يذهبوا إليه يحملون قميص يوسف وعليه الدماء الكاذبة قائلين إن الذئب قد أكله، فيغيب رأوبين ثم فجأة يعود ومعه أخوه ليقول له إنه كان فى البئر حيث ألقوا به، وهكذا يصيب عصفورين فى وقت واحد: يتخلص من منافسة إخوته له فى حب الأب، ويستأثر بحبه وحب يوسف. وهو ـ كما نرى ـ تصرف لا أخلاقى يصح أن يصدر عن رأوبين هذا، غير أنه يناقض ما جاء فى سفر التكوين من أن رأوبين لما عاد ليخرج يوسف من البئر ويعود به إلى أبيه ولكنه ـ على ما يبدو ـ فشل فى إخراجه، وفى أثناء ذلك مرت قافلة التجار العرب، فإذا بالأخ الذى يفيض حنانا وشفقة على أخيه الصغير اليتيم يقترح عليهم أن يخرجوه من البئر ليبيعه لهم!! فما الذى حدث فجعله يعدل عما كان قد عقد العزم عليه؟! هل رأى أن فضحه لما حدث سيسىء إلى علاقته بإخوته وربما بأبيه الذى ـ لا شك ـ سيعرف الحقيقة منهم ومن يوسف نفسه؟! أم أنه وقد غلب عليه حبه للمال وطمعه وشراهته فرأى أن لا يدع الفرصة تفلت دون أن يربح من وراء مصيبة أخيه فباعه بالثمن البخس الذى عرضته القافلة وهى زاهدة فى الصفقة؟! فدس المسكين رأوبين الدريهمات القليلة فى جيبه وعيناه تغرورقان بالدموع من فرط تأثره لفراق أخيه له، ثم استدار عائدا مطأطىء الرأس لا يكاد يتبين موضع قدميه!! فهل هناك تناقض فى التوراة أكثر من هذا؟! نعم فيها الكثير والكثير جدا!!

ونرجح أن اختيار رأوبين من بين إخوة يوسف لإظهاره بمظهر الأخ الطيب الذى اقترح على إخوته إلقاء يوسف فى الجب بدلا من قتله أو طرحه أرضا، وأن ذلك الاقتراح كان الغرض منه أن يعود بعد ذلك ـ بدون علم من إخوته ـ لكى يرجع بيوسف إلى أبيه، السبب فيه ما يلاحظه دارس التوراة من انحياز واضح وتعصب صريح ممن زوروها لأبناء يعقوب من ليئة: وهم الستة الأشرار

الذين تزعموا الحملة التى تهدف إلى التخلص من يوسف. وأن رأوبين يحظى بنصيب وافر من التحيز والتعصب ؛ لأنه يمثل الخلق اليهودى أدق تمثيل، وهو الخلق الذى يشجع على الخيانة والخداع والكذب والغدر، ويعلى من شأن أصحابها.

تنفيذ المؤامرة:

أما وقد استقر رأى المتآمرين على أن يلقوا بأخيهم فى الجب فقد بقى أن يأخذوه إلى حيث يوجد هذا الجب لكى يلقوا به فيه. ولكن الأب ـ على ما يبدو ـ كان يرفض أن يفارقه ابنه الصغير، ولا يتركه ليصحب إخوته للأسباب التى سبق أن ذكرناها؛ لذلك فإنهم لما ذهبوا إليه ـ فى أول خطوة فى مؤامرتهم ـ لم يستأذنوه فى أن يصطحبوا يوسف عند ذهابهم ليرتع ويلعب ـ على حد قولهم ـ وهو ما يحدث فى الأحوال التى يعتاد فيها الإخوة الصغار مصاحبة إخوتهم الكبار، بل ويصرون على ذلك، ناهيك أن يكون الكبار هم الذين يعرضون ذلك. ولكنهم بدأوا بسؤال أبيهم: لماذا لا يأمنهم على أخيهم يوسف وهم الذين يكبرونه فى السن ويستطيعون أن يبذلوا له النصح بحكم خبرتهم وتجاربهم فى الحياة؟!. وكأنهم قصدوا إحراجه بحيث يكون رده عليهم بالنفى، كأن يقول: ولماذا لا آمنكم عليه وأنتم إخوته؟!ها هو خذوه معكم إلى حيث تنوون الذهاب. ثم أضافوا قولهم: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] وفى قراءة أخرى (**نرتع ونلعب**). لم يقولوا له: أرسله معنا غدا يعمل ويتدرب؛ لأنهم أرادوا أن يظهروا أمامه بمظهر من يرغبون فى الترفيه عن أخيهم الصغير، ولو كان فى ذلك تضحية بوقتهم المخصص للعمل، ولإدراكهم أن ذلك سوف يصادف ترحيبا من الأب لأن ابنه الصغير محروم من الرتع واللعب بسبب ملازمته له وخوفه عليه ، ثم إنهم يعدونه بأن يحافظوا عليه بحيث لا يمسه سوء!!.

قالوا ذلك وهم يتصنعون الرقة والسماحة فى ملق شديد، يريدون خداع الأب بالتظاهر بأن خوفه على يوسف منهم ـ وهم إخوته ـ ومنعه إياه من الخروج معهم

(١) سورة يوسف، الآية: ١٢

لم يترك فى نفوسهم أثرا سيئا، ولم يثر غضبهم. ولكن الأب الذى لم تكن مشاعرهم نحو يوسف بخافية عليه رد عليهم قائلا: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾(١)

أى أنه قدم سببين اثنين لرفضه ذهاب يوسف معهم، الأول: أن ذلك سيجعله يحزن، والثانى: أنه يخاف أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون، مما كان يقتضى أن يردوا عليه بحيث يبينون له أن ليس فى الأمر ما يستدعى الحزن؛ لأنهم لن يذهبوا بعيدا بالقدر الذى يثير حزنه، أو المدة التى تجعله يشتاق إلى ابنه ويحزن لفراقه خاصة وأنه ليس مع أغراب ، بل مع إخوته، ولكنهم ـ وقد مس يعقوب بكلامه عن احتمال أن يغفلوا عن يوسف فيأكله الذئب ـ وترا حساسا لديهم، وهو ماأضمروه من نية إلقاء يوسف فى الجب ليتخلصوا منه، فإنهم لم يلقوا بالا إلى قوله الأول، وبادروا إلى الرد على قوله الثانى قائلين: ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾(٢)

فهم لم يستبعدوا حدوث ذلك، ولو كانوا يستبعدونه لما التفتوا إليه، ولاكتفوا بالرد على قوله الأول معتبرين أن القول الثانى هو من المبالغات غير المعقولة، أو الأوهام التى تتسلط على الآباء فى مثل هذه الأحوال فتصور لهم مخاطر شديدة تحدق بأبنائهم، أو أضرارا توشك أن تصيبهم. ولكنهم أخذوا من فمه هذه الكلمة ؛ لتكون عذرهم فيما هم مقدمون على فعله. واطمأن الأب إليهم، ووافق على خروج يوسف معهم، فنهض هذا فرحا مسرورا؛ لأنه سيصحب إخوته الكبار إلى حيث اعتادوا الذهاب للرعى ليقضى معهم وبينهم وقتا طيبا. وتظاهروا هم أمام أبيهم بالسعادة الشديدة، ورحبوا بأخيهم وأخذوا يدللونه ويظهرون له الحب والاهتمام، ويداعبونه فى رقة ورفق، بينما أبوهم يتبعه بنظراته الحانية المشفقة يتمنى فى نفسه أن يكونوا صادقين فى مشاعرهم نحو أخيهم الصغير. ولكنهم ما أن ابتعدوا به عن نظر أبيهم حتى قلبوا له ظهر

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٣

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٤

المجن، وظهروا على حقيقتهم مجرمين قساة غلاظ القلوب لا يرحمون ضعف أخيهم الصغير، وكونه وحيدا بينهم دون نصير، يتلقى إهاناتهم ولطماتهم وركلاتهم وهو يرتعش من الخوف، تنساب دموعه على خديه وترتعش شفتاه وهو يتوسل إليهم أن يترفقوا به متسائلا عما فعله لهم حتى يهينوه ويعذبوه هكذا بلا رحمة أو شفقة!! ولكنهم لا يأبهون بتوسلاته ، ويضاعفون من قسوتهم به شفاء لما فى صدورهم من حسد وحقد وكراهية. إلى أن وصلوا إلى حيث يوجد الجب، فاجتمعوا عليه يشلون حركته وينزعون عنه قميصه وهو يقاومهم، فيمعنون فى البطش به. و يقال إنهم ربطوه بحبل ودَلَّوْهُ فى الجب وهو يحاول أن يتشبث بهم ، ولكن بلا جدوى؛ فقد أخذوا يلطمونه ويشتمونه وهم يدفعون به إلى حافة الجب، ثم قاموا بقطع الحبل من نصف المسافة فسقط فى الماء فغمره، فصعد إلى صخرة فى وسط الماء فاستقر عليها[1]، وهو يرتعد من الخوف ومن الألم الذى أصابته به لكمات إخوته ولطماتهم. ولما انتهوا من فعلتهم الشنعاء تراجعوا عن الجب وهم يتنفسون الصعداء ينفضون أيديهم وهم يتبادلون نظرات الارتياح غير مبالين ببكاء أخيهم المسكين وصياحه بهم يتوسل إليهم أن يخرجوه، وهو يناشدهم بحق الدم الواحد والأخوة، ولكن هيهات!! فقد مضوا مبتعدين عن الجب. لكن أحدهم ـ وهو الذى كان يحمل قميص يوسف ـ قال لهم: ماذا سنصنع بهذا القميص؟! فأجابه الذى نزعه عن يوسف : ألم يبد أبونا تخوفه من أن يأكله الذئب ونحن عنه غافلون؟! وهنا انفرجت أسارير الباقين يرمقونه فى إعجاب وقد فهموا ما يعنيه، فأضاف ـ وهو يضحك مزهوا بذكائه الشرير ـ: نذبح شاة ونضع دمها على القميص ونعود به إليه لنقول له : إن ذئبا افترسه ونحن بعيدون عنه، وها هو قميصه عليه دمه ، فهللوا جميعا مرحبين بهذا الحل، وأقبلوا على أخيهم يهنئونه على ذكائه، فقال لهم: يظن أنه ذكى ـ يقصد يعقوب ـ ولكنا أذكى منه، فعادوا يضحكون ويشدون على يده. ثم مضوا إلى حيث تركوا قطيعهم من الغنم، فأخذوا شاة فذبحوها ولطخوا بدمها قميص

(١) ابن كثير، المرجع السابق، ص ٣٠٢

يوسف. ولعلهم فى غمرة فرحهم بالتخلص منه احتفلوا بأن سلخوا الشاة ثم أشعلوا نارا وشَوَوْهَا وتحلقوا حولها يأكلون ما نضج منها، وكأنهم لايتعجلون العودة إلى أبيهم، وإنما تعمدوا أن يتأخروا إلى أن حان وقت العشاء، يقول تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ ﴾[1].

والتوقيت هنا لم يأت عفوا أو مصادفة، فالقرآن الكريم لا يهتم بذكر مثل هذه التفاصيل الدقيقة إلا إذا كان لذلك سبب ومغزى، وهو هنا استغلال ظلام الليل فى إخفاء تعبيرات وجوههم وما تحمله نظراتهم من مشاعر لم يكن بوسع أبيهم أن يتحقق منها مع خفوت الضوء المنبعث من الوسائل التى كانت تستخدم فى الإضاءة فى تلك الأيام. ولنا أن نتخيلهم وقد اقتربوا من بيت أبيهم فتبادلوا النظرات ثم الإيماءات، وسرعان ما طأطأوا رءوسهم أسفا، وخفضوا أكتافهم وهنا وحزنا، وتعثرت خطواتهم على الأرض وكأنهم فقدوا السيطرة على أقدامهم من فرط اللوعة والأسى، وتظاهروا بالإجهاش بالبكاء إلى أن وصلوا إلى حيث يجلس أبوهم، الذى ما أن رآهم حتى نظر إليهم فى تساؤل بعد أن لاحظ أن يوسف ليس معهم، فنظروا إليه وهم يحاولون السيطرة على تعبيرات وجوههم، وأن يجعلوا نظراتهم ثابتة أمام نظرته، معتقدين أن خفوت الضوء فى المكان كفيل بإخفاء قلقهم وتوترهم، ثم انبرى أحدهم قائلا ـ ولعله رأوبين ـ: إنهم ذهبوا ليتسابقوا وتركوا يوسف عند متاعهم فأكله الذئب، فلما لاحظوا أن أباهم ينظر إليهم فى شك استطرد رأوبين قائلا فى حماس المريب: نحن نعلم أنك لا تصدقنا حتى لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك؛ لأنك أبديت خشيتك من أن يأكله الذئب، فأكله، فأنت معذور فى تكذيبك لنا، لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا[2].

وهنا نلاحظ كيف أن القرآن الكريم صور بدقة متناهية حال المجرم، وهو يحاول أن يخفى جريمته، أو يتنصل منها ويلقى بتبعتها على غيره فيقول كلاما ينم عن اضطرابه، ويشى بتناقضه.

الدليل المزور:

تحرك أحدهم فاقترب من أبيه وبيده قميص يوسف وعليه الدم المكذوب الذى

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٦

(٢) ابن كثير، المرجع السابق، ص ٣٠٣

لطخوه به ليقولوا إنه دمه، ونظر إلى يعقوب فى ثبات أقرب إلى الوقاحة وهو يقدم له القميص، فمد هذا يده فأخذه وقلبه بين يديه يفحصه بحثا عن أثر مخالب الذئب وأسنانه، ولكنه وجده سليما لا ثقب فيه أو قطع، فوضعه جانبا. وعبارة القرآن فى هذا الصدد فذة فى بلاغتها؛ فقد نكر الله تعالى الدم ووصفه باسم الكذب بعينه، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة، كما يقولون: شاهد عدل. وقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ ﴾[1] ليصور للقارىء والسامع أنه موضوع على ظاهره وضعا متكلفا، ولو كان من أثر افتراس الذئب له لكان القميص ممزقا والدم متغلغلا فى كل جزء منه[2] وهكذا فإنهم لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها وهى سلامة القميص من التخريق، ولما تأمل يعقوب ـ عليه السلام ـ القميص فلم يجد فيه خرقا ولا أثرا استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيما؟! يأكل يوسف ولا يخرق القميص؟!. وقد استدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب استدل على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح، وهى قوة التهمة، ولاخلاف بالحكم بها، قال ابن العربى[3]: وقد حكم يعقوب بأنهم كذابون مذنبون فى جريمة اختفاء أخيهم يوسف، وذلك فى قوله لهم: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾[4]

وهذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره: إن الذئب لم يأكله، بل سولت أنفسكم الأمارة بالسوء أمرا إمرا، وكيدا نكرا، وزينته فى قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه[5].

كان يمكن ـ بل كان يجب ـ أن تعتبر الجريمة قد تمت عند هذا الحد، وهو

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٨
(٢) رشيد رضا، المرجع السابق، ص ٢٢٠
(٣) القرطبى، المرجع السابق، ص ١٥٠
(٤) سورة يوسف، من الآية: ١٨
(٥) رشيد رضا، المرجع السابق ص ٢٢١

الصواب، حيث تتابعت المشاهد فى القرآن الكريم ابتداء بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾[1]

وانتهاء بقوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[2].

ثم يبدأ مشهد جديد تدور أحداثه عند الجب، حيث ألقى الإخوة الأشرار أخاهم يوسف فيه ثم عادوا بقميصه إلى أبيهم على النحو الذى أسلفناه. ولكن بعض المفسرين تأثروا بما ورد فى التوراة متعلقا بالمشهد الثانى الذى بدأ بمجىء السيارة أو القافلة ورفع واردها ليوسف من الجب فاستأنفوا الكلام؛ ليضيفوا إلى المشهد الأول تفاصيل جديدة مستمدة من التوراة، الأمر الذى أوشك أن يصيب القصة القرآنية بالاضطراب، وذلك عند تفسيرهم قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[3].

فقد قال محمد بن إسحق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فنزلوا قريبا من ذلك البئر، وأرسلوا واردهم ـ وهو الذى يتطلب لهم الماء ـ فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف ـ عليه السلام ـ فيها، فأخرجه واستبشر به. وأضاف العوفى عن ابن عباس قوله: إن الذين باعوا يوسف هم إخوته الذين أسروا شأنه، أى أخفوا أمره، من هو ومن أين، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف ـ هو الآخر ـ شأنه مخافة أن يقتله إخوته، وفضل أن يبيعوه. فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: يا بشرى هذا غلام يباع، فباعه إخوته[4]. وممن يؤيدون هذا الرأى ابن كثير[5] الذى قال فى موضع آخر: إن الأقوى هو أن إخوته هم

(١) سورة يوسف: ١٥

(٢) سورة يوسف: ١٨

(٣) سورة يوسف: ١٩، ٢٠

(٤) الطبرى، المرجع السابق، ص ١٠١

(٥) المرجع السابق، ص ٣٠٥

الذين باعوه بثمن بخس؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾[1] الذى أراد به إخوته لا أولئك السيارة؛ لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه من الزاهدين لما اشتروه، فرجح من هذا أن الضمير فى (وَشَرَوْهُ) إنما هو لإخوته.

وقال مجاهد: إخوة يوسف أحد عشر رجلا باعوه حين أخرجه المدلى بدلوه، وعن ابن عباس بنحوه، قال: فباعه إخوته بثمن بخس. ولعلنا قد لاحظنا فيما نسب إلى مجاهد قوله إن إخوة يوسف كانوا أحد عشر رجلا، وهو خطأ؛ لأن الابن الحادى عشر، وهو بنيامين الأخ الشقيق ليوسف لم يكن معهم فى ذلك اليوم، كما أنه لم يكن رجلا بل كان لا يزال طفلا؛ لأنه كان أصغر من يوسف.

أما الذين قالوا إن الذين باعوا يوسف هم السيارة لا إخوته فمنهم قتادة الذى قال: وشروه بثمن بخس هم السيارة الذين باعوه، وكذلك مجاهد الذى قال: إن الضمير فى قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على السيارة وليس على إخوة يوسف، فهو يقول فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾[2] إن صاحب الدلو ومن معه قالوا لأصحابهم: إنما استبضعناه خيفة أن يشركوهم فيه إن علموا بثمنه، وتبعهم إخوته يقولون للمدلى وأصحابه: استوثق منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر، فقال: من يبتاعنى ويبشر؟ فاشتراه الملك، والملك مسلم! وقال السدى: إنه لما اشتراه الرجلان فرقا من الرفقة أن يقولوا: اشتريناه، فيسألونهم الشركة، فقالا: إن سألونا ما هذا؟ قلنا: بضاعة استبضعناه أهل الماء، فذلك قوله: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾[2] ويقول القرطبى وكأنه لا يرجح رأيا على آخر[3]: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾[2] الهاء كناية عن يوسف ـ عليه السلام ـ فأما الواو فكناية عن إخوته، وقيل: عن التجار الذين اشتروه، وقيل: عن الوارد وأصحابه. أما الزمخشرى[4]

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٠
(٢) سورة يوسف، من الآية: ١٩
(٣) المرجع السابق، ص١٥٤
(٤) الكشاف، المرجع السابق، ص ٣٠٩

فيقول فى تفسيره لـ (أسروه): إن الضمير للوارد وأصحابه، أخفوه من الرفقة، وقيل: أخفوا أمر وجدانهم له فى الجب، قالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر. كذلك فسر قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[1] ممن يرغب عما فى يده فيبيعه بما طَفَّ من الثمن؛ لأنهم التقطوه، والملتقط للشىء متهاون به لا يبالى بم باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده؛ فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن. وهو رأى الشيخ رشيد رضا[2] حيث يقول فى تفسير ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾[3] أى: أخفوه من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان؛ لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم. والبضاعة ما يقطع من المال، ويفرز للاتجار به، مشتق من البضع وهو الشق والقطع، ومنه البضعة والبضع من العدد، وهى ثلاث إلى تسع، والبضعة من اللحم هى القطعة. وما قيل من أن الذين أسروه هم الوارد الذى استخرجه ومن كان معه دون سائر السيارة هو على خلاف الظاهر، وكذلك ما قيل من أن الضمير فى (وأسروه) يعود إلى إخوة يوسف.

هذا هو التفسير الأصح؛ لأنه يلتزم بتتابع المشاهد فى القرآن الكريم، فالمشهد الأول ينتهى بقول يعقوب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾[4] ليبدأ المشهد الثانى بأبطال آخرين ليس بينهم إخوة يوسف، وذلك على خلاف القصة التوراتية التى جاء فيها: أن إخوة يوسف - بعد أن ألقوه فى البئر - جلسوا ليأكلوا الطعام، فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد، وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولادنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر، فقال يهوذا لأخويه: ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفى دمه؟ تعالوا نبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه؛ لأنه أخونا ولحمنا، فسمع له إخوته. واجتاز رجال ميدانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر، وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا يوسف إلى مصر. ورجع رأوبين إلى البئر، وإذا يوسف ليس فى البئر، فمزق ثيابه، ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجودا، وأنا إلى أين أذهب؟! فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص فى

(١) سورة يوسف، من الآية: ٢٠
(٢) تفسير المنار، المرجع السابق، ص ٢٢٣
(٣) سورة يوسف، من الآية: ١٩
(٤) سورة يوسف، من الآية: ١٨

الدم وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم، وقالوا: وجدنا هذا، حَقِّقْ أقميصُ ابنك هو أم لا؟ فتحققه وقال: قميص ابنى، وحش ردىء أكله، افترس يوسف افتراسا، فمزق يعقوب ثيابه، ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة، فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه، فأبى أن يتعزى وقال: إنى أنزل إلى ابنى نائحا إلى الهاوية، وبكى عليه أبوه.» فلعلنا بذلك نكون عرفنا من أين استقى بعض المفسرين أقوالهم التى لا تتفق وظاهر الآيات فى هذه القصة.

القرار:

انتهى يعقوب ـ عليه السلام ـ من التحقيق فى الجريمة إلى استبعاد الدليل المزور الذى قدمه أولاده وأفهمهم أنهم كذبوا بقولهم: إن الذئب أكله، وأن الأمر على خلاف ذلك، وهو أنهم دبروا للتخلص من أخيهم، وبقى أن يحكم عليهم بما يستحقونه من عقاب. ولكن أى عقاب يوقع عليهم؟ إنه لم يثبت له أنهم قتلوا يوسف، ولو كانوا قتلوه ما احتاجوا إلى أن يضعوا على قميصه دما كذبا، إذن فالقدر المتيقن فى حقهم أنهم أخفوه عنه فى مكان ما، ولذلك فإن يعقوب لم يحدد لهم ما فعلوه بيوسف مكتفيا بالقول: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[1] ولم يعين هذا الأمر. هذا من ناحية التهمة، أما من ناحية العقوبة فبماذا يحكم أب على أبنائه فى مثل هذه الحالة؟! هل يحكم بنفيهم فيرحلوا عنه إلى أى مكان بحيث لا يراهم؟ أم يحكم بضربهم أو بحرمانهم من أن يرثوه؟ أم بغير ذلك؟! لم يكن ليخفى على يعقوب تعذر ـ إن لم يكن استحالة ـ توقيع أى عقوبة على أبنائه العشرة الأشرار! ثم إنهم أولاده أولا وأخيرا. وأطرق يعقوب طويلا يفكر فيما يمكنه أن يفعله، ثم رفع بصره إليهم وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[1] أى أن أمرى معكم ومع ربى فهو أن أصبر صبرا جميلا لا يشوه جماله جزع اليائسين من رَوْحِ الله، القانطين من رحمته، ولا الشكوى إلى غير الله ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1] من هذه المصيبة، لا أستعين على احتمالها غيره

(١) سورة يوسف، من الآية: ١٨

أحدا منكم ولا من غيركم.[1] فنظروا إليه فى بلادة وبرود كما لو كانوا لم يفهموا ما يعنيه، وقد غاب عنهم أنه وإن كان قد عجز عن أن يفعل بهم شيئا فإنه ترك أمرهم إلى الله تعالى، وأومأ إليهم أن انصوفوا، ثم أشاح بوجهه عنهم، فتبادلوا نظرات خبيثة اختلط فيها الارتياح بالسرور وهم يتركون المكان ولسان حالهم يقول: ليقل ما يشاء، المهم أننا تخلصنا من يوسف وإلى الأبد، ولن نلبث أن نسترضيه ـ يقصدون أباهم ـ فيعفو عنا ونتقاسم كل حبه بعد أن كان يؤثر يوسف بمعظمه.

ولكن هل فازوا حقا بحب يعقوب بعد أن اختفى يوسف؟! كلا بالطبع؛ وذلك لسبب غاب عنهم نتيجة لغيرتهم من يوسف وحقدهم عليه، وهذا السبب هو أن جريمتهم أصابت قلب يعقوب بجرح عميق، بدا كما لو كان لا يتوقف عن النزف بما يقترن به من آلام مبرحة لم تكن لتترك له فرصة ليحب أو ليكره. وعلى الرغم من أنه تجمل بالصبر، إلا أن صبره لم يكن يمنعه من أن يبكى على ابنه الصغير الذى كاد أن يصبح نبيا مثله ومثل جده إسحق وجده الأكبر إبراهيم ـ عليهم السلام ـ لولا أن وأد أبناؤه الحمقى هذا الأمل. وكان يعقوب يخشى أن تنقطع النبوة بموته من بيت إبراهيم، خاصة وأنه لم يفكر أبدا فى احتمال أن يخلفه واحد من هؤلاء الأشرار الذين تمالأوا على التخلص من أخيهم؟!

وهكذا فشل إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ فى إحراز الهدف الذى ارتكبوا الجريمة من أجله، وهو أن يخلو لهم وجه أبيهم فلا ينافسهم فيه يوسف، فظل كلما تكلم ذكر يوسف حتى بدت ذكراه كما لو كانت كابوسا يؤرقهم وشبحا يطاردهم، وبخاصة وهم فى حضرة أبيهم، مما جعلهم يتجنبونه حتى لا يواجهوا جريمتهم، وهم الذين كانوا يطمعون فى الاستئثار بحبه، فإذا فاض بهم الكيل تأففوا وتبرموا وأغلظوا له فى القول لتتسع الفجوة بينهم وبينه، وبدلا من أن ينسوا يوسف ويعفوه من حسدهم وحقدهم وهو الغائب الذى لا شأن له بهم، عادوا يجترون هذا الحقد حتى بات يعذبهم. ولقد بدا حقدهم على يوسف

(١) رشيد رضا، المرجع السابق، ص ٢٢١

واضحا جليا يوم أن وجه الاتهام لأحدهم بسرقة صواع الملك، حيث قالوا إن كان قد سرق فقد سرق أخ له من قبل، أى أن يوسف كان سارقا، يريدون أن يسيئوا إليه على الرغم من أنهم تخلصوا منه، ولكنه الحقد عليه الذى لم يفارق قلوبهم، وهم أول من يعلم أنه ما سرق يوما!

وهنا كان قد حان وقت العقاب الذى اختاره الله تعالى لهم فى الدنيا، غير ما كان سيعاقبهم به فى الآخرة لولا أنهم تابوا، وهو عقاب نفسى أشد كثيرا من العقاب المادى. ذلك أن الله تعالى أراد لهم أن ترتد سهامهم إلى نحورهم، فقد حسدوا يوسف وتمنوا زوال النعمة عنه وصيرورتها إليهم، وقاموا بإلقائه فى الجب لكى يختفى إلى الأبد، فكان أن التقطته القافلة المتوجهة إلى مصر وحملته إليها، حيث واجه خطوبا ومصائب ما بين اتهام كاذب بمحاولة الاعتداء على زوجة سيده العزيز، إلى وضعه فى السجن سنين طويلة، وأخيرا انقشعت الغمة وبدأ يجنى ثمار صبره الطويل، وأصبح أثيرا لدى الملك بعد أن برئت ساحته من التهمة الظالمة، وتولى الوزارة. وهكذا ضاعف له الله فى النعم. وإن أشد ما يؤلم الحسود الحقود هو أن يرى غريمه الذى اختصه بحسده وقد احتفظ بما أنعم الله عليه، فما بالنا إذا رآه وقد ضاعف الله له من النعم حتى بوأه مكانة عالية؟! إنه يوشك أن يموت كمدا وحسرة، ويشتد حقده حتى يظن أن سيقضى عليه. وهذا بالضبط ما حدث لإخوة يوسف، واستمع إليهم وهم يقولون ليوسف لما كشف لهم عن شخصيته ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[1]

فستجد فى كلامهم نبرة الحسد لم تزل، ولكن ماذا بمقدورهم أن يفعلوه بعد كل الذى اقترفوه فى حقه؟! لا شىء، لأن الله أكبر وأعظم وأقوى منهم، إذن فلا سبيل أمامهم ـ وهم الأضعف ـ إلا أن يعترفوا بأنهم كانوا خاطئين. فيقول لهم يوسف ـ وقد رأى كيف أن الله عاقبهم بأن جعله الأعلى وهم الأسفل يقفون أمامه صاغرين أذلاء ـ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[2].

(١) سورة يوسف، الآية: ٩١

(٢) سورة يوسف، من الآية: ٩٢

وهكذا تكون معاملة الأخ المظلوم لإخوته الذين ظلموه، ما دام أن الله أنصفه ونصره عليهم واعترفوا له بأنهم أخطأوا فى حقه، وكذلك إذا ظلموه فإنه يجب عليه أن يصبر ويستعين بالله إلى أن يرى حكم الله فيهم، أما اللدد فى الخصومة ورد الظلم بظلم مثله أو أشد منه فلا طائل من ورائه غير المزيد من العداوة والكراهية وما تؤدى إليه من قطع صلة الرحم التى أمرنا الله بالحرص عليها والتمسك بها.

خلاصة:

نخلص من قصة هذه الجريمة الشنعاء إلى الآتى:

أولا ـ أن الحسد يوجد لدى الإخوة نحو بعضهم البعض، وأنه قد يدفعهم إلى ارتكاب الجريمة فى حق بعضهم، وهو ما سبق أن رأيناه فى الفصل الأول حيث قتل قابيل أخاه هابيل، ورأيناه فى هذا الفصل حيث قرر بعض إخوة يوسف قتله فى أول الأمر، لولا أن تدخل أحدهم فاقترح أن يلقوا به فى غيابة الجب طالما أن ذلك سيحقق لهم غرضهم وهو التخلص من يوسف. وهذا يعنى أن تعدد الشركاء فى الجريمة يمكن أن يغير من مسارها، بحيث يعدل مرتكبوها عن القتل إلى ما هو أخف. وذلك بخلاف ما حدث من قابيل الذى كان وحده فمضى فى تنفيذ ما أقسم على اقترافه من جرم دون أن يراجعه أحد.

ثانيا ـ أن الصبر على أذى الإخوة أفضل من التصدى لهم ومبادلتهم حسدا بحسد وإساءة بإساءة، خاصة فى الحالة التى يتحالف فيها الإخوة ضد أخيهم صاحب النعمة؛ لأن خطرهم يكون شديدا، وكيدهم يكون عظيما. وأن المحسود لو تحلى بالصبر فإن الله تعالى سينصره على أعدائه، فلا يملكون إلا أن يرضوا بما قسمه الله له ولهم. وقد يعترفون بخطئهم ويلتمسون المغفرة من الله بعد أن يتوبوا إليه فيغفر لهم كما فعل مع إخوة يوسف.

ثالثا ـ أن الجريمة لاتفيد، وليس هناك سوى الوبال والخسران تعود به على مرتكبها، فبينما ظن إخوة يوسف أن اختفاء يوسف سيجعل أباهم يهتم بهم

ويبذل لهم من الحب ما كان يبذله لأخيهم الصغير اليتيم جاءت النتيجة بخلاف ما كانوا يظنون فقد صرفه الحزن على يوسف عن كل شيء إلا البكاء حتى ابيضت عيناه من الحزن، وبدلا من أن ترفرف السعادة عليهم وعلى أسرهم رفرف الحزن وتفشت الكآبة، فكان ذلك بمثابة عقاب لهم؛ لأنهم ظلوا يواجهون جريمتهم مع كل دمعة من دموع أبيهم، وكل إجهاشة يجهش بها فى يومه وليله، وكلما رأوه وهو يتحسس طريقه فى البيت أو خارجه فيتعثر تارة ويقع أخرى تحركت ضمائرهم من سباتها العميق.

رابعا ـ أنه ليس هناك ما يسمى الجريمة الكاملة؛ ذلك لأن المجرم مهما خطط ودبر من أجل أن لايترك ما يدل على ارتكابه للجريمة، فإنه لابد أن يخطىء لينكشف أمره. وها هم إخوة يوسف يحاولون أن يرتكبوا جريمة كاملة فيفشلون؛ فقد ظنوا أن أباهم حين أبدى خشيته من أن يتركوا يوسف فيأكله الذئب قدم لهم بذلك الحل الأمثل لمشكلتهم، فما أن ألقوا بيوسف فى الجب حتى ذبحوا شاةً ثم ألقوا بدمائها على قميص يوسف؛ لكى يقدموه لأبيهم قائلين إن الذئب قد أكله، وهذا دمه، ولكنهم نسوا أن الذئب لا يجرد الإنسان من قميصه حين يريد أن يأكله، وإنما يغرس مخالبه وأنيابه فى لحمه مخترقا ثيابه التى تخضبها الدماء من الداخل والخارج متخللة النسيج والثقوب.

وهكذا اِستطاع يعقوب أن يكشف أمرهم.